وغداً.. «فيلم آخر»

زينه يوسف

يأبى مشاهد فيلم «يوم آخر» لجوانا حاجي توما وخليل جريج، أن يذوب في إحدى شخصياته، التي على الرغم من واقعيتها تبقى صورة من صور العذابات التي يعيشها قسم من اللبنانيين من جراء مخلفات الحرب وويلاتها.

أمر طبيعي جداً ألا يتمنى المرء أن يكون شريك حياة شخص خطف قبل ١٥ عاماً ولم يعرف عنه شيئاً حتى اليوم، ويعيش هوس عودته المفاجئة على مدار اللحظة. أو أن يكون شاباً تربى على فكرة أن والده خطف ومات حينها، ولم تهبه الحياة فرصة النمو مع حنانه وحبه. أو أن يكون حبيب شخص ما، إنما بحالة هروب مستمرة منه، لسبب ما لا يجعل العلاقة بينهما تأخذ منحاها الطبيعي على الرغم من تحررها.

قصة الفيلم واقع نعيشه منذ فترة على وتيرة متكررة، مع أهالي المفقودين والأسرى اللبنانيين الذي ما زال صدى بكائهم ومطالبتهم بمعرفة مصير أولادهم يرج الوطن وضمائر أصحاب القدرة على البحث عن إجابة بسيطة ممكن أن تشكل فجراً ليوم آخر ربما يكون مثالياً لبدء حياة جديدة، تنطلق من واقع مرير إنما حازم يؤكد رحيلهم ويقطع الخيط الرفيع الذي ثبته بصيص الأمل بتغيير واقع قلما أوحى بنهاية سعيدة.

وعلى الرغم من أن الفيلم لم يتطرق الى سرد أحداث الحرب ولم يفصل قصة المفقودين اللبنانيين وقضيتهم القائمة، إنما يجعلنا نعيش ٢٤ ساعة من حياة عائلة قررت بنفسها قطع خيط الأمل بعودة مفقودها، والتوجه الى المحامي للتصريح رسمياً عن موته، موت الزوج والأب. خطوة قاسية تقرر العائلة أن تقوم بها بتشجيع مالك (زياد سعد) لأمه كلوديا (جوليا قصار) المترددة حتى اللحظة الأخيرة، الخائفة من عودة زوجها يوماً ما فيلومها على عدم انتظاره. على الرغم من أنها أمضت فترة غيابه تحتفظ بثيابه، تسمع وقع أقدامه وكأنه يدخل البيت، وتترقب السيارات المارة على الطريق لعله يترجل من إحداها.

لسان الحال

الحوار:

- حديث يجري بين شخصين أو أكثر في العمل القصصي، أو بين ممثلين أو أكثر على المسرح.
- ٨ حزيران (الجولة الثامنة).

لأن فيلم «يوم آخر»، أو (A Perfect Day)، فيلم لبناني أتى ليكمل الحركة التي تشهدها صالاتنا اللبنانية في الآونة الأخيرة من إنتاجات لبنانية بعد فيلمي «بوسطة» و«زوزو»، قررت مشاهدته في اليوم الثاني من بدء عرضه. ولأن خيار الصالات محدود، مع أن الفيلم لبناني ويجب عرضه في مختلف صالات السينما اللبنانية وفي كل المناطق، كانت لي فرصة التعرف على صالة جديدة فخمة يفرض عليك التواجد فيها دفع ألف ليرة لبنانية إضافية على سعر البطاقات المعتمد في صالات أخرى ضمن الشبكة ذاتها.

لا بد أن الحماسة لمشاهدة فيلم لبناني جمعت بين المشاهدين الذين لم يتجاوز عددهم العشرين شاباً وشابة وبين رفيقي وأنا. ولم يكن من شك في مدى تأثير نمط الفيلم الغريب عن طبع اللبنانيين الديناميكي، إذ كانت الأحداث حزينة وثقيلة لم ترض بعض الحاضرين الذين ملوا وتساءلوا بصوت عالٍ عما إذا كان أحد ما يوافقهم الرأي، ولا ترضي رغبة اللبناني المتفاعل مع نمط بلده والحياة اليومية والليلية المتسارعة والمتطورة فيه، إذ أنه وبطريقة ما يخفي وراءه أحزاناً كثيرة وأعباء متراكمة لا يجد الحل الأنسب للخروج منها من خلال تفاعله المطلق مع قلة الكلام المعتمدة في الفيلم، الذي استبدل بلغة المشاعر والأحاسيس الحزينة. مشاعر جرفتنا معها، وأشعرتنا بثقل العيش بين الماضي والحاضر، وخطورة عيش كل يوم بيومه تهرباً من ثقل الماضي، تارة في الحياة الواقعية وطوراً خارج العالم مثل مالك الذي بسبب جسده الذي يخذله يستسلم لنوم عميق يتخلله انقطاع في التنفس وذلك حين يتوقف عن الحراك (في زحمة السير، أثناء العمل أو حتى في ملهى ليلي وسط صخب الموسيقى).

أسلوبان مختلفان لعيش الحزن عرضهما لنا هذا الفيلم على مدى ساعة ونصف، اختصر خلالها يوم كامل من حياة عائلة تغلغل فيها الحزن الى درجة طرحت أمامنا سلسلة من الأسئلة التي تنطبق على هذين الشخصين وآخرين ممن يعانون الجرح ذاته. فهل من الممكن أن يحول إمضاء على ورقة ١٥ سنة من الألم الى غد أفضل يكون الإنطلاقة نحو يوم آخر؟

لم يكن مستغرباً أن يخرج البعض من الصالة وهو يبحث عن ابتسامة تائهة أو حتى فارغة لا يهم، هي فقط أداة للتخلص من وقع آلام الواقع اللبناني الموجود مهما تجاهلناه، وعرضه من خلال فيلم تصويري بأسلوب رائع لتذكير الغافلين عنه، ولإيصال معاناتنا الى مختلف أنحاء العالم. وقد أثبت هذا الفيلم، اللبناني الأوروبي الإنتاج (فرنسا المانيا ولبنان)، جدارته إذ نجح في قطف جوائز عديدة في عدد كبير من المهرجانات الأوروبية مثل لوكارنو في سويسرا ونامور في بلجيكا ونانت وبلفور في فرنسا.